

النُّكْت في إعجاز القرآن

لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني

(٢٩٦ هـ - ٣٨٦ هـ)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)

صلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

قال الشيخ الإمام أبو الحسن علي بن عيسى الرمانى سألت وفقك الله عن ذكر النكت فى إعجاز القرآن دون التطويل بالحجاج . وأنا أجتهد فى بلوغ محبتك ، والله الموفق للصواب بمنه ورحمته . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه .

وجوه إعجاز القرآن تظهر من سبع جهات : ترك المعارضة مع توفر الدواعى وشدة الحاجة ؛ والتحدى للكافة ؛ والصرفة . والبلاغة ؛ والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية ؛ ونقض العادة . وقياسه بكل معجزة .

فأما (٢) البلاغة فهى على ثلاث طبقات : منها ما هو فى أعلى طبقة ، ومنها ما هو فى أدنى طبقة . ومنها ما هو فى الوسائط . بين أعلى طبقة وأدنى طبقة . فما كان فى أعلاها (٣) طبقة فهو معجز . وهو بلاغة القرآن . وما كان منها دون ذلك (٤) فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس . وليست البلاغة إفهام المعنى ، لأنه قد يفهم المعنى متكلمان أحدهما بليغ والآخر عبي ؛ ولا البلاغة أيضاً بتحقيق اللفظ . على المعنى . لأنه قد يحقق اللفظ على المعنى وهو غث مستكره ونافر متكلف . وإنما البلاغة لإيصال المعنى إلى

(١) ت : وبه توفيق . كتاب النكت فى إعجاز القرآن تأليف الشيخ أبي الحسن علي بن عيسى الحورى الرمانى رحمه الله رواية القاضى الفقيه أبي الحسن علي بن الحسن الخليلي رضى الله عنه . قال رحمه الله . . .

(٢) ترك الجهات الثلاث الأولى والجهات الثلاث الأخيرة ليتكلم عنها باختصار فى آخر الكتاب .

(٣) ت « فى أعلا طبقة » .

(٤) ت معجز « وما كان فيما دون ذلك » .

القلب في أحسن صورة من اللفظ . فأعلاها طبقة في الحسن بلاغة القرآن ، وأعلى طبقات البلاغة للقرآن خاصة : وأعلى ^(١) طبقات البلاغة معجز للعرب والعجم كإعجاز الشعر المفحم ، فهذا معجز للمفحم خاصة كما أن ذلك معجز للكافة .

وبلاغة على عشرة أقسام : الإيجاز ، والتشبيه ، والاستعارة ، والتلازم والقواميل ، والتجانس ، والتصريف ، والتضمين ، والمبالغة ، وحسن البيان ونحن نفسرها باباً باباً إن شاء الله تعالى .

باب الإيجاز^(١)

الإيجاز تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى ، وإذا كان المعنى يمكن أن يعبر عنه باللفاظ . كثيرة ويمكن أن يعبر عنه باللفاظ قليلة ، فالألفاظ القليلة إيجاز . والإيجاز على وجهين : حذف ، وقصر ^(٢) ، فالحذف إسقاط كلمة للاجتزاء عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام . والقصر بنية الكلام على تقليل اللفظ . وتكثير المعنى من غير حذف . فمن الحذف ﴿ وأسأل القرية ﴾ ، ومنه ﴿ ولكن البر من اتقى ﴾ ، ومنه ﴿ براءة من الله ﴾ ، ومنه ﴿ طاعة وقول معروف ﴾ ، ومنه حذف الأجوبة ، وهو أبلغ من الذكر ، وما جاء منه في القرآن كثير كقوله جل ثناؤه : ﴿ ولو أن قرآناً سُيرت به الجبال أو قُطعت به الأرض أو كلّم به الموتى ﴾ كأنه قيل : لكان هذا القرآن . ومنه : ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً ﴾ حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها ﴿ كأنه قيل : حصلوا على النعيم المقيم الذي لا يشوبه

(١) يكتبها أحياناً أعلا بالالف وأحياناً أعلى بالياء .

(٢) عناوين الأبواب من التيمورية

(٣) يرجع ابن ستان هذه التسمية إلى الرماني (سر الفصاحة / ١٩٩) .

التنقيص والتكدير . وإنما صار الحذف في مثل هذا أبلغ من الذكر لأن النفس تذهب فيه كل مذهب ، ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذي تضمنه البيان ، فحذف الجواب في قولك : لو رأيت علياً بين الصّفين ، أبلغ من الذكر لما بيناه .

وأما الإيجاز بالقصر دون الحذف فهو أغمض من الحذف وإن كان الحذف غامضاً ، للحاجة إلى العلم بالمواضع التي يصلح فيها من المواضع التي لا يصلح^(١) . فمن ذلك : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾^(٢) ، ومنه : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صِحْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾^(٣) ، ومنه ﴿ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدَرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ﴾^(٤) . ومنه : ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾^(٥) ، ومنه ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾^(٦) ومنه ﴿ وَلَا يَحْقِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾^(٧)

وهذا الضرب من الإيجاز في القرآن كثير . وقد استحسن الناس من الإيجاز قولهم : القتلُ أنفى للقتل ، وبينه وبين لفظ القرآن تفاوت في البلاغة والإيجاز ، وذلك يظهر من أربعة أوجه : إنه أكثر في الفائدة ، وأجز في العبارة وأبعد من الكلفة بتكرير الجملة ، وأحسن تأليفاً بالحروف المتلازمة . أما الكثرة في الفائدة فيه ففيه كل ما في قولهم : القتلُ أنفى للقتل ، وزيادة معانٍ حسنة ، منها إبانة العدل^(٨) لذكره القصاص ، ومنها

(١) ت « هذا شرح الحذف » .

(٢) [البقرة ١٧٩ / ٢] .

(٣) [المنافقون ٦٣ / ٤] .

(٤) [الفتح ٤٨ / ٢١] .

(٥) [النجم ٥٣ / ٢٣] .

(٦) [يونس ١٠ / ٢٣] .

(٧) [فاطر ٣٥ / ٤٣] .

(٨) هذه الكلمة غير واضحة في هذه النسخة ، وهي في ت العدل .

إبانة الغرض المرغوب فيه لذكره الحياة ؛ ومنها الاستدعاء بالرغبة والرهبة لحكم الله به . وأما الإيجاز في العبارة فإن الذي هو نظير - القتل أنفى للقتل - قوله ﴿ القصاص حياة ﴾ ، والأول أربعة عشر حرفاً . والثاني عشرة أحرف . وأما بعده من الكلفة بالتكرير الذي فيه على النفس مشقة فإن في قولهم : القتل أنفى للقتل تكريراً غيره أبلغ منه ، ومتى كان التكرير كذلك فهو مقصر في باب البلاغة عن أعلى طبقة ، وأما الحسن بتأليف الحروف المتلائمة فهو مدرك بالحس وموجود في اللفظ . فإن الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة لبعدهم الهمزة من اللام ، وكذلك الخروج من الصاد إلى الحاء أعدل من الخروج من الألف إلى اللام ، فباجتماع هذه الأمور التي ذكرناها صار أبلغ منه وأحسن ، وإن كان الأول بليغاً حسناً . وظهور الإعجاز في الوجوه التي نُبَيِّنُهَا^(١) يكون باجتماع أمور يظهر بها للنفس أن الكلام من البلاغة في أعلى طبقة ، وإن كان قد يلتبس فيما قل بما حسن^(٢) جداً لإيجازه ، وحسن رونقه ، وعذوبة لفظه ، وصحة معناه . كقول على - رضي الله عنه^(٣) : قيمة كل امرئ ما يحسن . فهذا كلام عجيب يُغْنِي ظهور حسنه عن وصفه . فمثل هذه الشذرات لا يظهر بها حكم ، فإذا انتظم الكلام حتى يكون كأقصر سورة أو أطول آية ظهر حكم الإعجاز ، كما وقع التحدى في قوله تعالى ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ ، فبان الإعجاز عند ظهور مقدار المورة من القرآن

والإيجاز ببلاغة ، والتقصير عبي ، كما أن الإطناب ببلاغة والتطويل عبي ، والإيجاز لا إخلال فيه بالمعنى المدلول عليه ، وليس كذلك التقصير ، لأنه لا بد فيه من الإخلال . فأما الإطناب فإنما يكون في تفصيل المعنى وما يتعلق

(١) في ت « بيناها » . (٢) ت - به .

(٣) هذه العبارة في ت « كقول على كرم الله وجهه » .

به في المواضع التي يحسن فيها ذكر التفصيل . فإنَّ لكل واحد من الإيجاز والإطناب موضعاً يكون به أولى من الآخر ، لأنَّ الحاجة إليه أشد ، والاهتمام به أعظم ، فأما التطويل فعيب وعي ، لأنَّه تكلف فيه الكثير فيما يكفى منه القليل ، فكان كالمسالك طريقاً بعيداً جهلاً منه بالطريق القريب . وأما الإطناب فليس كذلك لأنَّه كمن سلك طريقاً بعيداً لما فيه من النزهة الكثيرة والفوائد العظيمة ، فيحمل في الطريق إلى غرضه من الفائدة على نحو ما يحصل له بالغرض المطلوب .

والإيجاز على وجهين : أحدهما إظهار النكتة بعد الفهم لشرح الجملة ، والآخر إحضار المعنى بأقل ما يمكن من العبارة . والوجه الأول يكون كثيراً في العلوم القياسية ، وذلك أنه إذا فهم شرح الجملة كفى بعد ذلك حفظ النكتة ، لأنها تكون حينئذ دالة ومغنية عن التعلق بها في نفسها ، لتعلق النكتة بها ، فهذا الضرب من الإيجاز لا يكون إلا بعد أحوال متقررة من الفهم لشرح الجملة فحينئذ تكون النكتة مغنية . وأما الوجه الآخر فمستأنف لم يقرر له حال خاصة يكون جاراً لها من حيث تعلق بها من فهم كيف وجه التعلق فيهما^(١) .

والإيجاز على ثلاثة أوجه : الإيجاز بسلوك الطريق الأقرب دون الأبعد ، وإيجاز باعتماد الغرض دون ما تشعب ، وإيجاز بإظهار الفائدة بما يستحسن دون ما يستقبل ، لأنَّ المستقبل ثقل على النفس ؛ فقد يكون للمعنى طريقان أحدهما أقرب من الآخر^(٢) كقولك : تحرك حركة سريعة - في موضع أسرع . وقد يكتنف الغرض شعب كثيرة كالتشبيب قبل المديح ، وكالصفات .

(١) هذه الجملة غامضة قلقت .

(٢) ت أحدهما من الآخر .

لما يعترض الكلام مما ليس عليه الاعتماد ، وإذا ظهرت الفائدة بما يستحسن فهو إيجاز لخفته على النفس .

وإذا عرفت الإيجاز ومراتبه ، وتأملت ما جاء في القرآن منه ، عرفت فضيلته على سائر الكلام ، وهو علوه على غيره من سائر الكلام ، وعلوه على غيره من أنواع البيان ، والإيجاز تهذيب الكلام بما يحسن به البيان ، والإيجاز تصفية الألفاظ من الكدر وتخليصها من الدرن ، والإيجاز البيان عن المعنى بأقل ما يمكن من الألفاظ .^(١) ، والإيجاز إظهار المعنى الكثير باللفظ اليسير ، والإيجاز والإكثار إنما هما في المعنى الواحد ، وذلك ظاهر في جملة العدد وتفصيله كقول القائل لى عنده خمسة وثلاثة واثنان في موضع عشرة^(٢) . وقد يطول الكلام في البيان عن المعاني المختلفة وهو مع ذلك في نهاية الإيجاز . وإذا كان الإطناب لا منزلة إلا ويحسن أكثر منها فالإطناب حينئذ إيجاز كصفة ما يستحقه الله تعالى من الشكر على نعمه ، فإطناب فيه إيجاز .

باب التشبيه

التشبيه هو العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر في حس أو عقل ولا يخلو التشبيه من أن يكون في القول أو في النفس . فأما القول فنحو قولك : زيد شديد كالأسد . فالكاف عقدت المشبه به بالمشبه ، وأما العقد في النفس فالاعتقاد لمعنى هذا القول . وأما التشبيه الحسى فكما بين وذهبين يقوم أحدهما مقام الآخر ونحوه ، وأما التشبيه النفسى فنحو تشبيه قوة

(١) في الأصل تصفية الكلام ثم شطبت لفظة الكلام ووضع مقابلها في الهامش كلمة « الألفاظ » .

وفي التيمورية الكلام ولكن عودة الضمير عليها مؤنثاً يرجع « الألفاظ » .

(٢) ت في موضع لى عنده عشرة .

زيد بقوة عمرو ، فالقوة لا تشاهد ولكنها تعلم^(١) سادة مسد أخرى فتشبهه .
 والتشبيه على وجهين^(٢) : تشبيه شيئين متفقين بأنفسهما ، وتشبيه
 شيئين مختلفين لمعنى يجمعهما مشترك بينهما . فالأول كتشبيه الجوهر بالجوهر
 وتشبيه السواد بالسواد والثاني كتشبيه الشدة بالموت والبيان بالسحر الحلال .
 والتشبيه البليغ إخراج الأغمض إلى الأظهر بأداة التشبيه مع حسن التأليف .
 وهذا الباب يتفاضل فيه الشعراء وتظهر فيه بلاغة البلغاء . وذلك أنه
 يكسب الكلام بياناً عجيباً . وهو على طبقات في الحسن كما بينا . فبلاغة
 التشبيه الجمع بين شيئين بمعنى يجمعهما يكسب بياناً فيهما . والأظهر
 الذي يقع فيه البيان بالتشبيه به على وجوه : منها إخراج ما لا تقع عليه
 الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة . ومنها إخراج ما لم تجربه عادة إلى
 ما جرت به عادة . ومنها إخراج ما لا يعلم بالبدئية إلى ما يعلم بالبدئية . ومنها
 إخراج مالا قوة له في الصفة إلى ماله قوة في الصفة . فالأول نحو تشبيه المعلوم
 بالغائب ، والثاني تشبيه البعث بعد الموت بالامتنيقاظ بعد النوم ، والثالث
 تشبيه إعادة الأجسام بإعادة الكتاب ، والرابع تشبيه ضياء السراج بضياء النهار .
 التشبيه على وجهين : تشبيه بلاغة وتشبيه حقيقة . فتشبيه البلاغة
 كتشبيه أعمال الكفار بالسراب . وتشبيه الحقيقة نحو : هذا الدينار كهذا
 الدينار فخذ أيهما شئت . ونحن نذكر بعض ما جاء في القرآن من التشبيه .
 وننبه على ما فيه من البيان بحسب الإمكان^(٣) . فمن ذلك قوله تعالى :
 ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعةٍ يحسبُ الظَّامُّ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ

(١) ت ولكنها سادة .

(٢) راجع رقم ٣ من ملحق تعليقات المتأخرين .

(٣) ت والله المبين على الصواب .

لم يَجِدْهُ شَيْئًا (١) فهذا بيان قد أخرجَ ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه (٢) ، وقد اجتمع في بطلان التوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة . ولو قيل يحسبه الرائي ماءً ثم يظهر أنه على خلاف ما قَدَّرَ لكان بليغاً ، وأبلغ منه لفظ القرآن ، لأنَّ الظمآن أشدَّ حرصاً عليه وتعلق قلب به ، ثم بعد هذه الخيبة حصل على الحساب الذي يصيره إلى عذاب الأبد في النار - نعوذ بالله من هذه الحال - وتشبيه أعمال الكفار بالسراب من حسن التشبيه ، فكيف إذا تضمن مع ذلك حسن النظم وعذوبة اللفظ وكثرة الفائدة ، وصحة الدلالة .

ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ﴾ (٣) فهذا بيان قد أخرجَ ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه ، فقد اجتمع المشبه والمشبه به في الهلاك وعدم الانتفاع والعجز عن الاستدراك لما فات ، وفي ذلك الحسرة العظيمة والموعظة البليغة ، ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا ﴾ (٤) ثم قال : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ﴾ (٥) فهذا بيان قد أخرجَ ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه ، وقد اجتمع في ترك الطاعة على وجه من وجوه التدبير وفي التخصيس ؛ فالكلب لا يطيعك في ترك اللهث حملت عليه أو تركته . وكذلك الكافر لا يطيع بالإيمان على رفق ولا على عُنْفٍ ، وهذا يدل على حكمة الله سبحانه وتعالى في أنه لا يمنع اللطف . وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ

(١) [النور ٢٤ / ٣٩] .

(٢) ت الحاسة .

(٣) [إبراهيم ١٤ / ١٨] .

(٤) [الأعراف ٥٧ / ١٧] .

(٥) [الأعراف ٦٧ / ١٧] .

بِبَالِغِهِ»^(١) فهذا بيان قد أُخرج مالا تقع عليه الحامسة إلى ما تقع عليه ، وقد اجتماعا في الحاجة إلى نيل المنفعة ، والحسرة بما يفوت من درك الطلبة ، وفي ذلك الزجر عن الدعاء إلا لله عز وجل الذي يملك النفع والضرر ، ولا يضيع عنده مثقال الذر . وقال عز وجل ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ ﴾ وهذا بيان قد أُخرج ما لم تجربه عادة إلى ما قد جرت به العادة . وقد اجتماعا في معنى الارتفاع في الصورة ، وفيه أعظم الآية لمن فكر في مقدرات الله تعالى عند مشاهدته لذلك أو عمله به ليطلب الفوز من قبله ، ونيل المنافع بطاعته . وقال عز وجل : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾^(٢) الآية ، وهذا بيان قد أُخرج ما لم تجربه عادة إلى ما قد جرت به وقد اجتماع^(٣) والمشبه به في الزينة والبهجة ثم الهلاك بعده ، وفي ذلك العبرة لمن اعتبر . والموعظة لمن تفكر في أن كل فان حقيق وإن طالبت مدته ، وصغير وإن كبر قدره . وقال عز وجل : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ . تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾^(٤) وهذا بيان قد أُخرج ما لم تجربه عادة إلى ما قد جرت به ، وقد اجتماعا في قلع الريح لهما ، وإهلاكها إياهما . وفي ذلك الآية الدالة على عظيم القدرة والتخويف من تمجيد العقوبة . وقال عز وجل : ﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾^(٥) فهذا تشبيه قد أُخرج ما لم تجربه عادة إلى ما قد جرت به . وقد اجتماعا في الحمرة ، وفي لين الجواهر السيالة وفي ذلك الدلالة على عظيم الشأن ونفوذ السلطان ، لتنصرف الهمم بالأمل إلى ما هناك^(٦) . وقال عز وجل : ﴿ اَعْلَمُوا

(١) [الرعد ١٣ / ١٤] .

(٢) [يونس ١٠ / ٢٤] .

(٣) المشبه والمشبه به .

(٤) [القم ٢٠ / ٥٤] .

(٥) [الرحمن ٥٥ / ٣٧] .

(٦) ت « لتصرف الهمم إلى ما هناك بالأمل » .

أَتَمَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ
 كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴿١﴾ الْآيَةُ ، فهذا تشبيه قد أخرج مالم
 تجربته عادة إلى ما قد جرت به ، وقد اجتمعوا في شدة الإعجاب ثم في التغيير
 بالانقلاب ، وفي ذلك الاحتقارُ للدنيا والتحذير من الاغترار بها والسكون
 إليهما . وقال عز وجل : ﴿ وَجَنَّةٌ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ (٢) فهذا
 تشبيه قد أخرج مالا يعلم بالبديهة إلى ما يُعلم . وفي ذلك البيان العجيب بما قد
 تقرر في النفس من الأمور ، والتشويق إلى الجنة بحسن الصفة مع مالها
 من السعة ، وقد اجتمعوا في العظم ، وقال عز وجل ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوَارَةَ
 ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ (٣) ، وهذا تشبيه قد أخرج
 مالا يُعلم بالبديهة إلى ما يُعلم بالبديهة ، وقد اجتمعوا في الجهل بما حملا ، وفي
 ذلك العيب لطريقة مَنْ ضَيَّعَ العلم بالانكال على حفظ الرواية من غير
 دراية . وقال عز وجل : ﴿ كَانَتْهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ (٤) وهذا تشبيه قد
 أخرج مالا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم ، وقد اجتمعوا في خلو الأجساد من
 الأرواح . وفي ذلك الاحتقارُ لكل شيء يؤول به الأمر إلى ذلك المآل .
 وقال عز وجل : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ ﴾ (٥)
 الْآيَةُ . فهذا تشبيه قد أخرج مالا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة وقد
 اجتمعوا في ضعف المُعْتَمَد . ووهاء المُسْتَنَد . وفي ذلك التحذير من حمل النفس على
 الغرور بالعمل على غير يقين . مع الشعور بما فيه التوهين .

وقال عز وجل : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ (٦) فهذا

(١) [الحديد ٢٠/٥٧] . (٢) [الحديد ٢١/٥٧] .

(٣) [الحج ٥٠/٦٢] . (٤) [الحاقة ٧/٦٩] .

(٥) [العنكبوت ٤١/٢٩] . (٦) [الرحمن ٢٤/٥٥] .

تشبيه قد أخرج مالا قوة له في الصفة إلى ماله قوة فيها ، وقد اجتمعما في العظم ، إلا أن الجبال أعظم . وفي ذلك العبرة من جهة القدرة فيما سخر من الفلك الجارية مع عظمها ، وما في ذلك من الانتفاع بها ، وقطع الأقطار البعيدة فيها . وقال عز وجل : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ ^(١) . وهذا تشبيه قد أخرج مالا قوة له في الصفة إلى ماله القوة وقد اجتمعما في الرخاوة والجفاف ، وإن كان أحدهما بالنار والآخر بالريح . وقال عز وجل : ﴿ أَجْعَلْتُمْ مِيقَاتَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ ﴾ ^(٢) . (وفي هذا إنكار لأن تجعل حرمة السقاية والعمارة كحرمة من آمن وكحرمة الجهاد) ^(٣) وهو بيان عجيب ، وقد كشفه التشبيه بالإيمان الباطل والقياس الفاسد ، وفي ذلك الدلالة على تعظيم حال المؤمن بالإيمان ، وأنه لا يساوى به مخلوق على صفته في القياس . ومثله ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ^(٤) .

باب الاستعارة

الاستعارة تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة . والفرق بين الاستعارة والتشبيه أن - ما كان من التشبيه - ^(٥) بأداة التشبيه في الكلام فهو على أصله ، لم يغير عنه في الاستعمال ، وليس كذلك

(١) [الرحمن ١٤/٥٥] . (٢) [التوبة ١٩/٩] .

(٣) هذه العبارة في الأصل مضطربة وهي هكذا : « فهذا إنكار لأن تجعل حرمة الجهاد كحرمة من آمن بالله » ونرى أن الصحيح ما أثبتناه . وقد أوردها ابن أبي الإصبع كما يلى : وهذا إنكار على من جعل حرمة الجهاد كحرمة من آمن بالله واليوم الآخر (بدائع القرآن . نسخة دار الكتب . ورقة ١٩ ب) .

(٤) [الباقية ٢٥ / ٢١] . (٥) هذه الزيادة من الهامش .

الاستعارة ، لأن مخرج الاستعارة مخرجُ ما العبارة [ليست] ^(١) له في أصل اللغة .

وكل استعارة فلا بد فيها من أشياء : مستعار ومستعار له ، ومستعار منه . فاللفظ المستعار قد نقل عن أصل إلى فرع للبيان . وكل استعارة بليغة فهي جمعُ بين شيئين بمعنى مشترك بينهما يكسب بيان أحدهما بالآخر كالتشبيه ، إلا أنه بنقل الكلمة والتشبيه بأداته الدالة عليه في اللغة . وكل استعارة حسنة فهي توجب بيان لا تنوب منابه الحقيقة . وذلك أنه لو كان تقوم مقامه الحقيقة . كانت أولى به . ولم تَجُزْ الاستعارة . وكل استعارة فلا بد لها من حقيقة ، وهي أصل الدلالة على المعنى في اللغة كقول امرئ التيس في صفة الفرس : « قيد الأوابد » والحقيقة فيه : مانع الأوابد ، وقيد الأوابد أبلغ وأحسن . وكقولك : ميزان القياس . حقيقته تعديل القياس ، والاستعارة فيه أبلغ وأحسن . فكل استعارة لابد لها من حقيقة . ولا بد من بيان لا يفهم بالحقيقة . ونحن نذكر ما جاء في القرآن من الاستعارة على جهة البلاغة ، قال الله عز وجل : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ ^(٢) . حقيقة قدمنا هنا عمدنا وقدمنا أبلغ منه لأنه يدل على أنه عاملهم معاملة القادم من سفر ، لأنه [عاملهم] ^(٣) من أجل إمهاله لهم كمعاملة الغائب عنهم ، ثم قدم فرأهم على خلاف ما أمرهم . وفي هذا تحذير من الاغترار بالإمهال ، والمعنى الذي يجمعهما العدل . لأن العمد إلى إبطال الفاسد عدل : والقدم أبلغ لما بيننا . وأما هباء منثوراً فبيان قد أخرج مالا تقع عليه الحاسة

(١) أضفنا كلمة (ليست) لتستقيم العبارة ويصح المراد ، ونعنها في « سر الفصاحة » (ص ١١١) « وليس كذلك الاستعارة لأن مخرج الاستعارة مخرج ما ليست العبارة له في أصل اللغة . (راجع رقم ٤ في ملحق تعليقات المتأخرين) .

(٢) [الفرقان ٢٥ / ٢٣] . (٣) زيدت هذه الكلمة ليستقيم السياق .

إلى ما تقع عليه حاسة . وقال عز وجل : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ ^(١) . حقيقته
فَبَلِّغْ ما تؤمر به ، والاستعارة أبلغ من الحقيقة ، لأن الصدع بالأمر لا بد
له من تأثير كتأثير صدع الزجاج ، والتبليغ قد يصعب حتى لا يكون له
تأثير فيصير بمنزلة ما لم يقع . والمعنى الذى يجمعهما الإيصال ، إلا أن
الإيصال الذى له تأثير كصدع الزجاج أبلغ . وقال عز وجل : ﴿ إِنَّا لَمَّا
طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ ^(٢) . حقيقته عللاً والاستعارة أبلغ لأن
طغى عللاً قاهراً ، وهو مبالغة فى عظم الحال . وقال عز وجل : ﴿ بِرِّيْحٍ صَرْصَرٍ
عَاتِيَةٍ ﴾ ^(٣) . حقيقته شديدة ، وَالْعُتُوُّ أبلغ منه لأن العتو شدة فيها تمرد .
وقال تعالى : ﴿ سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ ^(٤) ،
شهيقة حقيقته صوتاً فظيماً كشهيق الباكي . والاستعارة أبلغ منه . وأوجز ،
والمعنى الجامع بينهما قبح الصوت . ﴿ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ حقيقته : من شدة
الغليان بالانتقاد ، والاستعارة أبلغ منه ، لأن مقدار شدة الغيظ على النفس
محسوس ، مدرك [مدى] ما يدعو إليه من شدة الانتقام . فقد اجتمع شدة فى
النفس تدعو إلى شدة انتقام فى الفعل ، وفى ذلك أعظم الزجر وأكبر الوعظ ، وأدل
دليل على سعة القدرة وموقع الحكمة . ومنه : ﴿ إِذَا رَأَوْهُم مِّنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا
لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا ﴾ ^(٥) أى تَسْتَقْبِلُهُم للإيقاع بهم استقبال مغناط . يزفر
غيظاً عليهم . وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا ﴾ ^(٦) . حقيقته
أصل الكتاب ، وهو أبلغ لأن الأم أجمع وأظهر فيما يُرَدُّ إليه مما ينشأ عنه ،
وقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ ﴾ ^(٧) . وحقيقته انتفاء الغضب ،
والاستعارة أبلغ لأنه انتهى انتفاء مُراصد بالعودة ، فهو كالسكوت على مرادة

(٢) [الحاقة ٦٩ / ١١] .

(١) [الحجر ١٥ / ٩٤] .

(٤) [الملك ٦٧ / ٨] .

(٣) [الحاقة ٦٩ / ٦] .

(٦) [الزخرف ٤٣ / ٤] .

(٥) [الفرقان ٢٥ / ١٢] .

(٧) [الأعراف ٧ / ١٥٢] .

الكلام بما تُرجيه الحكمة في الحال ، فانتفى الغضب بالسكوت عما يكره ،
والمغنى الجامع بينهما الإمساك عما يكره . وقال تعالى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ
وَحِيدًا ﴾ ^(١) . ذرني ها هنا مستعار ، وحقيقته : ذر عقابي ومن خلقت وحيداً
بترك مسألتى فيه . إلا أنه أخرج لتفخيم الوعيد مخرج ذرني وإياه لأنه
أبلغ ، وإن كان الله تعالى لا يجوز عليه المنع ، وإنما صار أبلغ لأنه لا منزلة
من العقاب إلا وما يقدر الله تعالى عليه منها أعظم . وهذا أعظم ما يكون من
الزجر . وقال تعالى : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ ﴾ ^(٢) والله عز وجل
لا يشغله شأن عن شأن . ولكن هذا أبلغ في الوعيد ، وحقيقته سنعمد . إلا أنه
لما كان الذي يعمد إلى شيء قد يُقَصِّر فيه لشغله بغيره معه . وكان الفارغ
له هو البالغ في الغالب مما يجرى به التعارف ، دللنا بذلك على المبالغة
من الجهة التي هي أعرف عندنا لما كانت بهذه المنزلة ، ليقع الزجر بالمبالغة
التي هي أعرف عند العامة والخاصة موقع الحكمة . وقال تعالى : ﴿ فَمَحُونَا
آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ ^(٣) . فمبصرة ها هنا استعارة ،
وحقيقته مضيئة ، وهي أبلغ من مضيئة ، لأنه أدل على موقع النعمة . لأنه يكشف
عن وجه المنفعة . قيل : هو بمعنى ذات إبصار وعلى هذا يكون حقيقة . وقال
تعالى : ﴿ وَاشْرَعِلْ الرَّأْسَ شَيْبًا ﴾ ^(٤) . أصل الاشتعال للنار وهو في هذا
الموضع أبلغ . وحقيقته كثرة شيب الرأس . إلا أن الكثرة لما كانت تتزايد
تزايداً سريعاً صارت في الانتشار والإسراع كاشتعال النار . وله موقع في البلاغة
عجيب ، وذلك أنه انتشر في الرأس انتشاراً لا يُتَلَفَى كاشتعال النار . وقال
تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ ^(٥) . فالقذف

(١) [الدثر ٧٤ / ١١] . (٢) [الرحمن ٥٥ / ٣١] . (٣) [الإسراء ١٧ / ١٢]

(٤) [مريم ٤ / ١٩] . (٥) [الأنبياء ٢١ / ٣٨] .

والدمغ هنا مستعار وهو أبلغ ، وحقيقته : بل نورد الحق على الباطل فيذهب ، وإنما كانت الاستعارة أبلغ لأن في القذف دليلاً على القهر ، لأنك إذا قلت : قذف به إليه فإنما معناه ألقاه إليه على جهة الإكراه والقهر ، فالحق يلقى على الباطل فيزيله على جهة القهر والاضطرار لا على جهة الشك والارتباب ، ويدمغه أبلغ من يدعبه لما في يدمغه من التأثير فيه فهو أظهر في النكاية وأعلى في تأثير القوة .

وقال تعالى : ﴿ عذابٌ يومٍ عقيمٍ ﴾^(١) وعقيم ما هنا مستعار وحقيقته ها هنا مُبِير ، والاستعارة أبلغ لأنه قد دل على أن ذلك اليوم لاخير بعده للمعذبين ، فقيل : يوم عقيم ، أى لا ينتج خيراً ، ومعنى الهلاك فيهما إلا أن أحد الهلاكين أعظم . وقال تعالى : ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ﴾^(٢) نسلخ مستعار ، وحقيقته : يخرج منه النهار . والاستعارة أبلغ لأن السلخ إخراج الشيء مما لايسه وعسر انتزاعه منه لالتحامه به ، فكذلك قياس الليل . وقال تعالى ﴿ فأنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا ﴾^(٣) النشر ها هنا مستعار ، وحقيقته : أظهرنا به النبات والأشجار والثمار فكانت كمن أحييناه بعد إماتته ، فكأنه قيل : أحيينا به بلدة ميتة من قولك : أنشر الله الموتى فنشروا . وهذه الاستعارة أبلغ من الحقيقة لتضمنها من المبالغة ما ليس في أظهرنا ، والإظهار في الإحياء والإنبات إلا أنه في الإحياء أبلغ . وقال تعالى : ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَ تَكُونُ لَكُمْ ﴾^(٤) اللفظ . ها هنا بالشوكة مستعار . وهو أبلغ . وحقيقته السلاح . فذكر الحد الذى به تقع المخافة واعتمد على الإيماء إلى النكته . وإذا كان السلاح يشتمل على

(٢) [يس ٢٧ / ٢٦] .

(٤) [الأنفال ٧ / ٨] .

(١) [الحج ٢٢ / ٥٥] .

(٣) [الزخرف ٤٣ / ١١] .

ما له حد وما ليس له حد . فشوكة السلاح هي التي تبقى . وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٌ ﴾^(١) عريض ها هنا مستعار . وحقيقته كبير ، والاستعارة فيه أبلغ لأنه أظهر بوقوع الحاسة عليه . وليس كذلك كل كثرة . وقيل : عريض لأن العرض أدل على الطول . وقال تعالى : ﴿ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾^(٢) وهذا مستعار . وحقيقته : حتى يضع أهل الحرب أثقالها ، فجعل وضع أهلها الأثقال وضعاً لها على جهة التفتيح لسانها وقال تعالى : ﴿ وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾^(٣) وتنفس ها هنا مستعار ، وحقيقته إذا بدأ انتشاره ، وتنفس أبلغ منه . ومعنى الابتداء فيهما ، إلا أنه في التنفس أبلغ لما فيه من الترويح عن النفس . وقال تعالى : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾^(٤) وهذا مستعار ، وحقيقته أجاعها الله وأخافها والاستعارة أبلغ ، لدلائلها على استمرار ذلك بهم كاستمرار لباس الجلد وما أشبهه . وإنما قيل ذاقوه لأنه كما يجد الذائق مرارة الشيء فهم في الاستمرار كذلك الشدة في المذاقة ، وقال تعالى ﴿ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا ﴾^(٥) وهذا مستعار ، وزلزلوا أبلغ من كل لفظ كان يعبر به عن غلظ . ما نالهم . ومعنى حركة الإزعاج فيهما ، إلا أن الزلزلة أبلغ وأشد . وقال تعالى : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾^(٦) . أفرغ مستعار وحقيقته افعل بنا صبراً ، وأففرغ أبلغ منه لأن في الإفراغ اتساعاً مع بيان . وقال عز وجل : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنْ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ ﴾^(٧) حقيقته حصلت عليهم الذلة . والاستعارة أبلغ لما فيه من الدلالة على تثبيت ما حصل

(٢) [محمد ٤٧ / ٤] .

(١) [فصلت ٤١ / ٥١] .

(٤) [النحل ١٦ / ١٢] .

(٣) [التكوير ٨١ / ١٨] .

(٦) [البقرة ٢ / ٢٥٠] .

(٥) [البقرة ٢ / ٢١٤] .

(٧) [آل عمران ٣ / ١١٢] .

عليهم من الذلة كما يثبت الشيء بالضرب لأن التمكين به محسوس ،
والضرب مع ذلك ينبئ عن الإذلال والنقص^(١) ، وفي ذلك شدة الزجر لهم
والتنفير من حالهم ، وقال تعالى : ﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ حقيقته تعرضوا
للفغلة عنه ، والاستعارة أبلغ لما فيه من الإحالة على ما يتصور . وقال تعالى :
﴿ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا ﴾^(٢) حقيقته تكون لنا
ذات سرور ، والاستعارة أبلغ لما للإحالة فيه على ما قد جرت العادة بمقدار
السرور به . وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾^(٣) كل
خوض ذمه الله تعالى في القرآن فلفظه مستعار من خوض الماء ، وحقيقته :
يذكرون آياتنا ، والاستعارة أبلغ لإخراجه إلى ما تقع عليه المشاهدة من الملابس ،
لأنه لا تظهر ملابس المعاني لهم كما تظهر ملابس الماء لهم . وقال تعالى :
﴿ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ﴾^(٤) وحقيقته صيرهما إلى الخطيئة بغرور ، والاستعارة
أبلغ لإخراجه إلى ما يحس من التدل من علو إلى سفلى . وقال تعالى :
﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾^(٥) وقال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ
أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ ﴾^(٦) الآية . كل هذا مستعار ، وأصل
البنيان إنما هو للحيطان وما أشبهها ، وحقيقته اعتقادهم الذي عملوا عليه ،
والاستعارة أبلغ لما فيها من البيان بما يحس ويتصور ، وجعل البنيان ريبة
وإنما هو ذور ريبة . والاستعارة أبلغ ، كما تقول : هو خبث كله ، وذلك

(١) هذا التعليل محل النظر فتل هذا الأسلوب تستمله العرب أحياناً حيث لا يلحظ الإذلال

ولا للخص كقول الشاعر :

إن الساحة والمروءة والندى في قبة ضربت على ابن الحشرج

(٢) [المائدة ١١٤/٥] . (٣) [الأنعام ٦ / ٦٨] .

(٤) [الأعراف ٧ / ٢٢] . (٥) [التوبة ٩ / ١١٠] .

(٦) [التوبة ٩ / ١٩٠] .

أبلغ من أن يجعله متمزجاً . لأن قوة الدم للريبة ، فجاء على البلاغة لا على الحذف الذى إنما يراد به الإيجاز فى العبارة فقط . وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ (١) العوج ها هنا مستعار ، وحقيقته خطأ والاستعارة أبلغ لما فيه من البيان بالإحاطة على ما يقع عليه الإحساس من العدول عن الاستقامة بالاعوجاج . وقال عز وجل : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ (٢) أصل الأركان للبنىان ، ثم كثر واستعير حتى صار الأعوان أركاناً للمُعان ، والحجج أركاناً للإسلام ، وحقيقته إلى معين شديد . الاستعارة أبلغ لأن الركن يحس . والمعين لا يحس من حيث هو معين . قال تعالى : ﴿ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنَّ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ ﴾ (٣) أصل الحصيد للنبات . حقيقته مهلكة . والاستعارة أبلغ لما فيه من الإحالة على إدراك البصر . وقال عز وجل ﴿ الرّ . كتابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (٤) . كل ما جاء فى القرآن من ذكر من الظلمات إلى النور فهو مستعار . وحقيقته من الجهل إلى العلم ، والاستعارة أبلغ لما فيه من البيان بالإخراج إلى ما يدرك بالأبصار . وقال تعالى : ﴿ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾ (٥) أصل الخمود للنار وحقيقته هادئين . والاستعارة أبلغ لأن خمود النار أقوى فى الدلالة على الهلاك . على حد قولهم : طُفئَ فُلَانٌ كَمَا يُطْفَأُ السَّرَاجُ . وقال عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ (٦) واد هنا مستعار ، وكذلك الهيمان ، وهو من أحسن البيان . وحقيقته يخلطون فيما يقولون ، لأنهم ليسوا على قصد لطريق الحق . والاستعارة أبلغ

(١) [الأعراف ٧/ ٤٥] .

(٢) [هود ١١/ ٨٠] .

(٣) [يونس ١٠/ ٢٤] .

(٤) [إبراهيم ١٤/ ١] .

(٥) [الأنبياء ٢١/ ١٥] .

(٦) [الشعراء ٢٦/ ٢٢٥] .

لما فيه من البيان بالإخراج إلى ما يقع عليه الإدراك من تخليط. الإنسان بالهيمان في كل واد يعن له فيه الذهاب . وقال تعالى : ﴿ وَدَاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾^(١) السراج ها هنا مستعار وحقيقته مبيّنًا ، والاستعارة أبلغ للإحالة على ما يظهر بالحاسة . وقال عز وجل : ﴿ يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ﴾^(٢) أصل الرقاد النوم وحقيقته من مهلكنا . والاستعارة أبلغ لأن النوم أظهر من الموت ، والاستيقاظ أظهر من الإحياء بعد الموت . لأن الإنسان الواحد يتكرر عليه النوم واليقظة ، وليس كذلك الموت والحياة . وقال تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾^(٣) أصل الموج للماء وحقيقته تخليط. بعضهم ببعض ، والاستعارة أبلغ ، لأن قوة الماء في الاختلاط أعظم . وقال تعالى : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾^(٤) العقيم مستعار للريح ، وحقيقته ريح لا يأتي بها سحب غيث ، والاستعارة أبلغ لأن حال العقيم أظهر من حال الريح التي لا تأتي بمطر ، لأن ما لا يقع من أجل حال منافية أوكد مما يقع من غير حال منافية وأظهر . وقال عز وجل : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾^(٥) ، حقيقته لا تمنع نائلك كل المنع ، والاستعارة أبلغ لأنه جعل منع النائل بمنزلة غل اليد إلى العنق ، وذلك مما يحسن حال التشبيه فيه بالمنع فيهما إلا أن حال المغلول اليد أظهر وأقوى فيما يكره . وقال تعالى : ﴿ وَلَنُنذِرَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ ﴾^(٦) حقيقته لنعذبهم ، والاستعارة أبلغ . لأن إحساس الذائق أقوى لأنه طالب لإدراك ما يذوقه ، ولأنه جعل بدل إحساس

(١) [الأحزاب ٣٣/٤٦] .

(٢) [يس ٣٦ / ٥٢٣] .

(٣) [الكهف ١٨ / ٩٩] .

(٤) [الذاريات ٥١ / ٤١] .

(٥) [الإسراء ١٧ / ٢٩] .

(٦) [السجدة ٢١ / ٣٢] .

الطعام المستلذ إحساس الآلام ، لأنَّ الأسبق في الذوق ذوق الطعام . وقال تعالى : ﴿ فَضْرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾^(١) حقيقته منعناهم الإحساس بآذانهم من غير صمم . والاستعارة أبلغ لأنَّه كالضرب على الكتاب فلا يقرأ ، كذلك المنع من الإحساس فلا يُحسُّ ، وإنما دل على عدم الإحساس بالضرب على الآذان دون الضرب على الأبصار ، لأنَّه أدل على المراد من حيث كان قد يضرب على الأبصار من غير عمى فلا يبطل الإدراك رأساً ، وذلك بتغميض الأجفان ، وليس كذلك منع الإسماع من غير صمم في الآذان ، لأنَّه إذا ضرب عليها من غير صمم دل على عدم الإحساس من كل جراحة يصح بها الإدراك . ولأنَّ الأذن لما كانت طريقاً إلى الانتباه ثم ضُربوا عليها لم يكن سبيل إليه . وقال عز وجل : ﴿ ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ ﴾^(٢) هذا استعارة ، حقيقته أطرقوا للمذلة عند لزوم الحجة ، إلا أنَّه بولغ في العبارة بجعلهم كالواقع على رأسه للحيرة بما نزل به من الآبدة . وقال تعالى : ﴿ وَلَا سُقْطَ فِي أَيْدِيهِمْ ﴾^(٣) هذا مستعار وحقيقته : ندموا لما رأوا من أسباب الندم ، إلا أنَّ الاستعارة أبلغ للإحالة فيه على الإحساس لما يوجب الندم بما سقط في اليد ، فكانت حاله أكشف في سوء الاختيار لما يوجب من الوبال .

باب التلاؤم

التلاؤم نقيض التنافر ، والتلاؤم تعديل الحروف في التأليف ، والتأليف على ثلاثة أوجه^(٤) :

- | | |
|------------------------|--|
| (١) [الكهف ١٨/ ١١] . | (٢) [الأنبياء ٢١ / ٦٥] . |
| (٣) [الأعراف ٧/ ١٤٩] . | (٤) راجع رقم ٥ في ملحق تعليقات التأخيرين . |

متنافر ، ومتلائم في الطبقة الوسطى ، ومتلائم في الطبقة العليا .

فالتأليف المتنافر كقول الشاعر :

وقبرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْرُ وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ^(١)

وذكروا أَنَّ هذا من أشعار الجن لأنه لا يتهياً لأحد أن ينشده ثلاث
مرات فلا يَتَتَعَّعُ ، وإنما السبب في ذلك ما ذكرناه من تنافر الحروف .

وأما التأليف المتلائم في الطبقة الوسطى - وهو من أحسنها - فكقول
الشاعر :

رَمَتْنِي وَسَتَرُ اللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا عَشِيَّةَ آرَامِ الْكِنَاسِ رَمِيمُ
(رَمِيمُ الَّتِي قَالَتْ لَجِيرَانِ بَيْنَهَا ضَمِنْتُ لَكُمْ الْأَيْزَالَ يَهِيمُ)^(٢)
أَلَا رَبُّ يَوْمٍ لَوْ رَمَتْنِي رَمِيَّتْهَا وَلَكِنْ عَهْدِي بِالنُّضَالِ قَدِيمُ^(٣)

والتلائم في الطبقة العليا القرآن كله ، وذلك بين لمن تأمله . والفرق بينه
وبين غيره من الكلام في تلاؤم الحروف على نحو الفرق بين المتنافر والمتلائم
في الطبقة الوسطى^(٤) . وبعض الناس أشد إحساساً بذلك وفطنة له من بعض ،
كما أن بعضهم أشد إحساساً بتمييز الموزون في الشعر من المكسور ، واختلاف

(١) رواه الجاحظ في البيان والتبيين ط السندوب ٤٧/١ ويذكره الباقلائي مستشهداً على المتنافر
كما فعل الروائي (إعجاز القرآن ط خفاجي ٢٨٥) .

(٢) هذا البيت زيادة من البيان والتبيين (٨٢/١ . السندوب) ويذكره في المؤلف .

(٣) هذه الأبيات الثلاثة لأبي حية الغيري الشاعر الأموي المجيد ، من شعراء الحماسة .

وتروى في الحماسة (شرح الحماسة للتبريزي ط . محيي الدين ٢٩٩/٣) :

رَمَتْنِي وَسَتَرُ اللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا وَنَحْنُ بِأَكْنَفِ الْحِجَازِ رَمِيمُ
فَلَوْ أَنَّهَا لَمْ رَمَتْنِي رَمِيَّتْهَا وَلَكِنْ عَهْدِي بِالنُّضَالِ قَدِيمُ

ويرويه المبرد (١٩١/) الكامل . ط . مصر ١٣٥٥ هـ . كارهها الروائي .

(٤) في الأصل (. . .) بين المتلائم والمتنافر في الطبقة الوسطى « والصواب من سر الفصاحة

الناس في ذلك من جهة الطباع كاختلافهم في الصور والأخلاق . والسبب في التلاؤم تعديل الحروف في التأليف ، فكلما كان أعدل كان أشد تلاؤماً . وأما التنافر فالسبب فيه ما ذكره الخليل من البعد الشديد أو القرب الشديد ^(١) وذلك أنه إذا بُعد البعد الشديد كان بمنزلة الطفر ، وإذا قرب القرب الشديد كان بمنزلة مثنى المقيد ، لأنه بمنزلة رفع اللسان ورده إلى مكانه ، وكلاهما صعب على اللسان ، والسهولة من ذلك في الاعتدال ، ولذلك وقع في الكلام الإدغام والإبدال .

والفائدة في التلاؤم حسن الكلام في السمع ، وسهولته في اللفظ ، وتقبل المعنى له في النفس لما يرد عليها من حسن الصورة وطريق الدلالة . ومثل ذلك مثل قراءة الكتاب في أحسن ما يكون من الخط . والحروف ، وقراءته في أقبح ما يكون من الحرف والخط . ، فذلك متفاوت في الصورة وإن كانت المعاني واحدة .

ومخارج الحروف مختلفة ، فمنها ما هو من أقصى الحلق ، ومنها ما هو من أدنى الفم ، ومنها ما هو في الوسائط . بين ذلك .

والتلاؤم في التعديل من غير بعد شديد أو قرب شديد . وذلك يظهر بسهولة على اللسان ، وحسنه في الأسماع ، وتقبله في الطباع ، فإذا انضاف إلى ذلك حسن البيان في صحة البرهان في أعلى الطبقات ظهر الإعجاز للجيد الطباع البصير بجواهر الكلام ، كما يظهر له أعلى طبقات الشعر من أناها إذا تفاوت ما بينهما . وقد عم التحدى به للجميع لرفع الإشكال ، وجاء على

(١) يناقش ابن سنان هذا الرأي (سر الفصاحة ٩٤) وسيجيء نص مناقشته في الباب الأخير من هذا الكتاب .

جهة الإخبار بأنه لا تقع المعارضة لأجل الإعجاز ، فقال عز وجل : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾^(١) . ثم قال : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَكِنْ تَفْعَلُوا ﴾ فقطع بأنهم لن يفعلوا . وقال تعالى : ﴿ قُلْ لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴾^(٢) . وقال : ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾^(٣) . ولما تعللوا بالعلم والمعاني^(٤) التي فيه قال : ﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ ﴾^(٥) . فقد قامت الحجة على العربي : والعجمي بعبء الجميع عن المعارضة إذ بذلك تبين المعجزة .

باب الفواصل

الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني . والفواصل بلاغة ، والأسجاع عجيب^(٦) ، وذلك أن الفواصل تابعة للمعاني ، وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها . وهو قلب ما توجبه الحكمة في الدلالة ، إذ كان الغرض الذي هو حكمة إنما هو الإبانة عن المعاني التي الحاجة إليها ماسة ، فإذا كانت المشاكلة وصلة إليه فهو بلاغة ، وإذا كانت المشاكلة على خلاف ذلك فهو عيب ولكنة ، لأنه تكلف من غير الوجه الذي توجبه الحكمة . ومثله مثل من رصع تاجاً ثم ألبسه زنجياً ساقطاً ، أو نظم قلادة در ثم ألبسها كلباً . وقبح ذلك وعيبه بَيِّنٌ لمن له أدنى فهم ، فمن ذلك ما يحكى عن بعض الكهان : « والأرض والسماء ، والغراب الواقعة بنة ماء . لقد نفر المجدل إلى العُشراء » .

(١) [البقرة ٢٣/٢] . (٢) [إسراء ٨٨/١٧] . (٣) [الطور ٥٢/٣٤]

(٤) شرح عبد القاهر هذه الفكرة في رسالة (الشافعية) المذكورة بعد ص ١٣٨ و ١٩٩ .

(٥) [هود ١١ / ١٣] . (٦) راجع رقم ٦ في ملحق التعليقات .

ومنه ما يحكى عن مسيلمة الكذاب : « يا ضفدع نقي كم تنقین . لا الماء تكدرین ولا النهر تفارقین » .

فهذا أغث كلام يكون وأسخفه ، وقد بينّا علته . وهو تكلف المعانى من أجله^(١) . وجعلها تابعة له من غير أن يبالي المتكلم بها ما كانت .

وفواصل القرآن كلها ببلاغة وحكمة . لأنها طريق إلى إفهام المعانى التى يحتاج إليها فى أحسن صورة يدل بها عليها ، وإنما أخذ السجع فى الكلام من سجع الحمامة . وذلك أنه ليس فيه إلا الأصوات المتشاكلة ، كما ليس فى سجع الحمامة إلا الأصوات المتشاكلة . إذ كان المعنى لما تكلّف من غير وجه الحاجة إليه والفائدة فيه لم يعتد به . فصار بمنزلة ما ليس فيه إلا الأصوات المتشاكلة .

والفواصل على وجهين : أحدهما على الحروف المتجانسة والآخر على الحروف المتقاربة^(٢) . فالحروف المتجانسة كقوله تعالى : ﴿ طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى ﴾^(٣) . الآيات . وكقوله : ﴿ والطور وكتاب مسطور ﴾ . . الآيات ، وأما الحروف المتقاربة فكالميم من النون ، كقوله تعالى : ﴿ الرحمن الرحيم مالك يوم الدين ﴾ . وكذلك مع الباء نحو : ﴿ ق . والقرآن المجيد ﴾ ثم قال : ﴿ هذا شيء عجيب ﴾ وإنما حسن فى الفواصل الحروف المتقاربة لأنه يكتنف الكلام من البيان ما يدل على المراد فى تمييز الفواصل والمقاطع ، لما فيه من البلاغة وحسن العبارة . وأما القوافى فلا تحتل ذلك لأنها ليست فى الطبقة العليا من البلاغة وإنما حسن الكلام فيها إقامة

(١) أى من أجل السجع .

(٢) ذكر ابن سنان الوجهين على أنهما تماثل وتقارب أو حروف متماثلة ومتقاربة وناقش رأى الرمانى فيها وسيجيء بعد (سر الفصاحة ١٦٣ ، ١٦٤ وما بعدها) (٣) [طه ٢٠/١] .

الوزن ومجانسة القوافي . فلو بطل أحد الشيثين^(١) خرج عن ذلك المنهاج . وبطل ذلك الحسن الذي له في الأسماع : ونقصت رتبته في الأفهام . والفائدة في الفواصل دلالتها على المقاطع . وتحسينها الكلام بالتشاكل وإبدائها في الآي بالنظائر .

باب التجانس

تجانس البلاغة هو بيان بأنواع الكلام الذي يجمعه أصل واحد في اللغة . والتجانس على وجهين ؛ مزاجية ومناسبة^(٢) . فالمزاجية تقع في الجزء^(٣) كقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ عَتَدَىٰ عَلَيْنَا فَاَعْتَدُوا عَلَيْهِ ﴾^(٤) أي جازوه بما يستحق على طريق العدل ، إلا أنه استعير للثاني لفظ الاعتداء لتأكيد الدلالة على المساواة في المقدار ، فجاء على مزاجية الكلام لحسن البيان . ومن ذلك ﴿ مُسْتَهْزِئُونَ ، اللَّهُ يُسْتَهْزَىٰ بِهِمْ ﴾ ، أي يجازيهم على استهزائهم ، ومنه : (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين)^(٥) أي جازاهم على مكدهم . فاستعير للجزء على المكر اسم المكر لتحقيق الدلالة على أن وبال المكر راجع عليهم ومختص بهم . ومنه ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾^(٦) أي مجازيهم على خديعتهم ، ووبال الخديعة راجع عليهم . والعرب تقول : الجزء بالجزء ، والأول ليس بجزء ، وإنما هو على مزاجية الكلام .

(١) هذه اللفظة في الأصل يمكن أن تقرأ : البيت .

(٢) راجع رقم ٧ في ملحقات تعليقات المتأخرين .

(٣) ذكر المبرد هذا النوع في « ما اختلف لفظه » وسماه المزج (ص ١٣ - ١٤) .

(٤) [البقرة ٢ / ١٤] .

(٥) [آل عمران ٣ / ٥٤] .

(٦) [النساء ٤ / ١٤٢] .

قال عمرو بن كلثوم :

أَلَا لَا يَجْهَلُنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ^(١)

فهذا حسن في البلاغة . ولكنه دون بلاغة القرآن لأنه لا يؤذن بالعدل كما آذنت بلاغة القرآن ، وإنما فيه الإيذان برابع الوبال فقط ، والاستعارة للثاني أولى من الاستعارة للأول لأن الثاني يحتذى فيه على مثال الأول في الاستحقاق ، فالأول بمنزلة الأصل والثاني بمنزلة الفرع الذي يحتذى فيه على الأصل : فلذلك نقصت منزلة قولهم : الجزاء بالجزاء ، عن الاستعارة بمزاوجة الكلام في القرآن .

الثاني من المجانس وهو المناسبة . وهي تدور في فنون المعاني التي ترجع إلى أصل واحد . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْصَرِفُوا صِرَفَ اللَّهِ قُلُوبِهِمْ ﴾^(٢) فجونس بالانصراف عن الذكر صرف القلب عن الخير ، والأصل فيه واحد وهو الذهاب عن الشيء ، أما هم فذهبوا عن الذكر . وأما قلوبهم فذهب عنها الخير . ومنه : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾^(٣) فجونس بالقلوب التقلب . والأصل واحد ، فالقلوب تتقلب بالخواطر ، والأبصار تتقلب في المناظر ، والأصل التصرف . ومنه : ﴿ يَمَحُقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ﴾^(٤) فجونس بإرباء الصدقة ربا الجاهلية ، والأصل واحد وهو الزيادة إلا أنه جعل بدل تلك الزيادة المذمومة زيادة محمودية .

(١) قال المبرد : لم يمدح بأنه جاهل ، إنما قصد المكافأة والشرف في قوله :

فوق جهل الجاهلينا

(ما اتفق لفظه واختلف معناه . السلفية ١٣٥٠ ص ١٤) .

(٢) [التوبة ١٢٧/٩] . (٣) [النور ٢٤/٣٧] .

(٤) [البقرة ٢ / ٢٧٦] .

باب التصريف

التصريف تصريف المعنى في^(١) المعانى المختلفة ، كتصريفه في الدلالات المختلفة ، وهو عقدها به على جهة التعاقب ، فتصريف المعنى في المعانى كتصريف الأصل في الاشتقاق في المعانى المختلفة ، وهو عقدها به على جهة المعاقبة ، كتصريف الملك في معانى الصفات ؛ فصُرِّفَ في معنى مالك ، وملك ، ذى الملكوت ، والمليك ، وفي معنى التمايك ، والتالك ، والإملاك . والتملك ، والمملوك .

كذلك تصريف معنى العرض في الأعراض ، والاعتراض ، والاستعراض ، وبالتعرض ، والتعريض والمعارضة والعرض والعروض . وكله منعقد بمعنى الظهور . ومنه : أعرضت اليامة أى ظهرت وهو الأصل ، ومنه أيضاً الإعراض عن الإنسان لأنه انزواء عن الظهور له ، ومنه الاعتراض وهو ظهور ما يصد عن الذهاب ، ومنه الاستعراض للجارية لأنه طَلَبُ لظهورها للحامسة ، ومنه التعريض للأمر لأنه طَلَبُ لظهوره بالفعل ، ومنه التعريض للنفع لأنه يصير على السبب الذى به يقع ظهور النفع ، ومنه المعارضة لأنها مقابلة يقع منها ظهور المساواة ، أو المخالفة ، ومنه المعْرِضُ لأنَّ ظهور الشيء به أبين ، ومنه العرض لأنه على ظهور شيء لا يلبث ، ومنه العَرُوضُ لأنه ميزان الشعر ، يظهر به المنكسر من المتن . وهذا الضرب من التصريف فيه بيان عجيب يظهر فيه المعنى بما يكتنفه من المعانى التى تظهره وتدل عليه . أما تصريف المعنى في الدلالات المختلفة فقد جاء في القرآن في غير قصة . منها قصة موسى

(١) راجع رقم ٨ في التعليقات .

عليه السلام . ذكرت في سورة الأعراف وفي طه والشعراء . . وغيرها لوجوه من
الحكمة . منها التصرف في البلاغة من غير نقصان عن أعلى مرتبة . ومنها
تمكين العبرة والموعظة . ومنها حل الشبهة في المعجزة . وذلك أن الأشياء على
وجهين : منها ما لا يدخل تحت الممكن فيه معارضة . ومنها ما يدخل تحت
الممكن ، فالأول كالتحدى بحدود يضرب في عدد فيكون منه خمسة وعشرون
غير خمسة في خمسة وكذلك التحدى في قسمة المقادير أنه لا يخلو مقداران
من أن يكون أحدهما أزيد من الآخر أو أنقص أو مساوياً . فإذا قال
قائل : هاتوا مثل هذه القسمة في غير المقادير قلنا لا يلزم ذلك لأنه لا يدخل
تحت الممكن . وكذلك سبيل الجدور . ولو قال جذر مائة عشرة فهاتوا لها
جذراً غير العشرة . وليس كذلك سبيل أعلى الطبقات في البلاغة لأن الذي
قدر على أن يأتي بسورة آل عمران والذي قدر على المائدة هو الذي قدر
على الأنعام . وهو الله عز وجل الذي يقدر أن يأتي بما شاء من مثل القرآن
فظهور الحجاج على الكفار بأن أتى في المعنى الواحد بالدلالات المختلفة
فيما هو من البلاغة في أعلى طبقة .

باب التضمين

تضمين الكلام هو حصول معنى فيه من غير ذكر له باسم أو صفة
هي عبارة عنه . والتضمين على وجهين : أحدهما ما كان يدل عليه الكلام
دلالة الإخبار ، والآخر ما يدل عليه دلالة القياس .

فالأول كذكرك الشيء بأنه مُحدث . فهذا يدل على المحدث دلالة
الإخبار ، والتضمين في الصفتين جميعاً ، إلا أنه على الوجه الذي بيّننا .

وكذلك سبيل المكسور ومنكسر . وساقط . ومسقط .

والتضمين على وجهين . تضمين توجبه البنية . وتضمين يوجبه معنى العبارة من حيث لا يصح إلا به . ومن حيث جرت العادة بأن يعقد به . فأما الذى توجبه نفس البنية . فالصفة بمعلوم يوجب أنه لا بد من عالم ، وكذلك مكرم . وأما الذى يوجبه معنى العبارة من حيث لا تصح إلا به . فكالصفة بقاتل يدل على مقتول من حيث لا يصح معه معنى قاتل . ولا مقتول^(١) ، فهو على دلالة التضمين .

وأما التضمين الذى يوجبه معنى العبارة من جهة جريان العادة فكقولهم : « الكُرُّ بـسِتِينَ^(٢) » المعنى فيه بستين ديناراً ، فهذا مما حذف وضمن الكلام معناه لجريان العادة به . والتضمين كله إيجاز استغنى به عن التفصيل إذ كان مما يدل دلالة الإخبار فى كلام الناس . فأما التضمين الذى يدل عليه دلالة القياس فهو إيجاز فى كلام الله عز وجل خاصة . لأنه تعالى لا يذهب عليه من وجوه الدلالة . فنضبه لها يوجب أن يكون قد دل عليها من كل وجه يصح أن يدل عليه . وليس كذلك سبيل غيره من المتكاهمين بتلك العبارة ، لأنه قد تذهب إليه دلالتها من جهة القياس ولا يخرج ذلك عن أن يكون قد قصد بها الإبانة عما وضعت له فى اللغة من غير أن يلحقه فساد فى العبارة . وكل آية فلا تخلو من تضمين لم يذكر باسم أو صفة ، فمن ذلك : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » قد تضمن التعليم لاستفتاح الأمور على التبرك به والتعظيم لله بذكره . وأنه أدب من آداب الدين وشعار للمسلمين ، وأنه إقرار بالعبودية واعتراف بالنعمة التى هى من أجل نعمة . وأنه ملجأ الخائف :

(١) أى والحال أنه لا مقتول .

(٢) الكر بالضم مكياك للعراق ستة أوقار حمار ودوستون فقيراً أو أربعون إردباً .

ومعتمد للمستنجع . وقد بينّا ذلك بعد انقضاء كل آية في كتاب « الجامع لعلم القرآن »^(١) .

باب المبالغة

المبالغة هي الدلالة على كبر المعنى على جهة التغيير عن أصل اللغة لتلك الإبانة . والمبالغة على وجوه منها المبالغة في الصفة المعدولة عن الجارية بمعنى^(٢) المبالغة ، وذلك على أبنية كثيرة منها : فعلان ، ومنها فعال ، وفعل ، ومفعل . ومفعال . فمفعلان كرحمان عدل عن راحم للمبالغة ، ولا يجوز أن يوصف به إلا الله عز وجل لأنه يدل على معنى لا يكون إلا له ، وهو معنى وسعت رحمته كل شيء . ومن ذلك فعال كقوله عز وجل : ﴿ وإني لغفار لمن تاب ﴾ معدول عن غافر للمبالغة ، وكذلك تَوَّاب ، وعلام . ومنه فعول كقفور وشكور . وودود ، ومنه فاعيل كقدير ، ورحيم ، وعليم . ومنه مِفعِل كمدعس ، ومطعن . ومفعال كمنحمار ، ومطعام .

الضرب الثاني المبالغة بالصيغة العامة في موضع الخاصة . كقوله تعالى : ﴿ خالِق كلِّ شيء ﴾^(٣) وكقول القائل : أتأبى النَّاسُ . ولعله لا يكون أتاه (إلا) خمسة فاستكثرهم ، وبالغ في العبارة عنهم .

الضرب الثالث : إخراج الكلام مخرج الإخبار عن الأعظم الأكبر للمبالغة كقول القائل : جاء المَلِكُ^(٤) إذا جاء جيش عظيم له . ومنه قوله

(١) لعل الإشارة هنا إلى كتابة « الجامع الكبير » في التفسير .

(٢) يورد الباقلاّن تعريف المبالغة على أنها الدلالة على كثرة المعنى [إعجاز القرآن ص ٢٨٨ ط .

خفاجي] . (٣) [الأنعام ٦ / ١٠٢] .

(٤) في المادش كلمة « نفسه » تجاه هذا السطر ، وترد العبارة في التيمورية جاء الملك بنفسه . وقد آثرنا العبارة كما وردت في المتن من غير التأكيد لأنه لا يستقيم مع معنى المجاز في العبارة .

عز وجل : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾^(١) فجعل مجيء دلائل الآيات مجيئاً له على المبالغة في الكلام . ومنه : ﴿ فَآتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ ﴾^(٢) أى أتاهم بعظيم بأسه فجعل ذلك إتياناً له على المبالغة . منه قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾^(٣) .

الضرب الرابع : إخراج الممكن إلى الممتنع للمبالغة ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلْبِغَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾^(٤) .

الضرب الخامس : إخراج الكلام مخرج الشك للمبالغة في العدل والمظاهرة في الحجاج ، فمن ذلك : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾^(٥) . ومنه : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾^(٦) وعلى هذا النحو خرج مخرج قوله تعالى : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا ﴾^(٧) جاء على التسليم أن لهم مستقراً خيراً من جهة السلامة من الآلام ، لأنهم ينكرون إعادة الأرواح إلى الأجسام فقليل على هذا أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً . ومنه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ على التسليم أن أحدهما أهون من الآخر فيما يسبق إلى نفوس العقلاء .

الضرب السادس : حذف الأجوبة للمبالغة كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ ﴾^(٨) و ﴿ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ ﴾^(٩) ومنه : ﴿ ص ، وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ ﴾^(١٠) كأنه قيل : لجاء الحق أو لعظم

(١) [الفجر ٨٩/ ٢٢] .

(٢) [الأعراف ٧٦/ ١٤٢] .

(٣) [سبا ٢٤/ ٢٤] .

(٤) [الفرقان ٢٥] .

(٥) [البقرة ٢/ ١٦٥] .

(٦) [النحل ١٦/ ٢٦] .

(٧) [الأعراف ٧/ ٤٠] .

(٨) [الزخرف ٤٣/ ٨١] .

(٩) [الأنعام ٦/ ٢٧] .

(١٠) [ص ١/ ٢٨] .

الأمرُ أو لجاء بالصدق . كل ذلك يذهب إليه الوهم لما فيه من التفخيم .
والحذف أبلغ من الذكر . لأن الذكر يقتصر على وجه والحذف يذهب فيه
الوهم إلى كل وجه من وجوه التعظيم لما قد تضمنه من التفخيم .

باب البيان

البيان هو الإحضار لما يظهر به تميز الشيء من غيره في الإدراك .
والبيان على أربعة أقسام^(١) : كلام . وحال . وإشارة ، وعلامة .
والكلام على وجهين : كلامٌ يظهر به تميز الشيء من غيره فهو بيان . وكلام
لا يظهر به تميز الشيء فليس ببيان كالكلام المخلط . والمحال الذي لا يفهم
به معنى . وليس كل بيان يفهم به المراد فهو حسن من قبل أنه قد يكون
على عى وفساد ، كقول السوادى وقد سئل عن أتان معه فقيل له : ما تصنع
بها ؟ . فقال : أحبلها وتولد لى . فهذا كلام قبيح فاسد . وإن قد فهم به
المراد وأبان عن معنى الجواب . وكذلك ما يحكى عن باقل ، والعرب تضرب
به المثل فى العى فتقول : أعبى من باقل . وأبين من سحبان وائل ، فبلغ
من عيه أنه سُئل عن ظبية كانت معه بكم اشتراها ، فأراد أن يقول بأحد
عشر . فأخرج لسانه وفرج عشر أصابعه فأفلتت الظبية من يده . فهذا وإن
كان قد أكد للإفهام ، فهو أبعد الناس من حسن البيان . وليس بحسن
أن يطلق اسم بيان على ما قبح من الكلام ، لأن الله قد مدح البيان واعتد به
فى آياديه الجسام . فقال : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ
الْبَيَانَ ﴾ ولكن إذا قيد بما يدل على أنه يعنى به إفهام المراد جاز .

(١) سبق الجاحظ الرمانى إلى تعريف البيان وقرر أن جميع أصناف الدلالات على المعانى
من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد : أولها اللفظ ، ثم الإشارة ثم العقد ، ثم الخط ،
ثم الحال التى تسمى نصبة ، والنصبة هى الحال الدالة التى تقوم مقام تلك الأصناف ولا تقصر عن مدى
تلك الدلالات . (البيان والتبيين ط . هارون ج ١ / ٧٥ - ٧٦) .

وحسن البيان في الكلام على مراتب : فأعلاها مرتبة ما جمع أسباب
الحسن في العبارة من تعديل النظم حتى يحسن في السمع ويسهل على
اللسان وتتقبله النفس تقبل البرد . وحتى يأتي على مقدار الحاجة فيما هو
حقه من المرتبة .

والبيان في الكلام لا يخلو من أن يكون باسم أو صفة أو تأليف من غير
اسم للمعنى أو صفة . كقولك : غلام زيد . فهذا التأليف يدل على الملك
من غير ذكر له باسم أو صفة ، ودلالة الاشتقاق كدلالة التأليف في أنه
من غير ذكر اسم أو صفة . كقولك : قاتل تدل على مقتول وقتل من غير
ذكر اسم أو صفة لواحد منها ، ولكن المعنى مضمن بالصفة المشتقة وإن لم
تكن له . ودلالة الأسماء والصفات متناهية . فأما دلالة التأليف فليس لها
نهاية . ولهذا صار التحدى فيها بالمعارضة لتظهر المعجزة . ولو قال قائل .
قد انتهى تأليف الشعر حتى لا يمكن أحداً أن يأتي بقصيدة إلا وقد قيات
فيما قيل لكان ذلك باطلاً ، لأن دلالة التأليف ليس لها نهاية كما أن الممكن
من العدد ليس له نهاية يوقف عندها لا يمكن أن يزداد عليها . والقرآن كله في
نهاية حسن البيان بما فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ
وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾^(١) . فهذا بيان عجيب يوجب التحذير من الاغترار
بالإمهال . وقال سبحانه : ﴿ إِنْ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾^(٢) . وقال
﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾^(٣) فهذا من أحسن الوعد والوعيد . وقال :
﴿ وَضَرْبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا
الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾^(٤) فهذا أبلغ ما يكون من

(٢) [الدخان ٤٤ / ٤٠] .

(٤) [يس ٣٦ / ٧٦٩] .

(١) [الدخان ٤٤ / ٣٦] .

(٣) [الدخان ٤٤ / ٥١] .

الحجاج وقال : ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ﴾ ^(١) ،
 فهذا أشد ما يكون من التقرير وقال تعالى : ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ
 أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ ^(٢) فهذا أعظم ما يكون من التحسير . وقال :
 ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ ^(٣) . وهذا أدل دليل على العدل من حيث
 لم يقتطعوا عما يتخلصون به من ضرر الجرم ، ولا كانت قبائحهم على طريق
 الجبر . . وقال تعالى : ﴿ الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ ^(٤)
 وهذا أشد ما يكون من التنفير على الخلقة إلا على التقوى . وقال تعالى : ﴿ أَنْ
 تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ ﴾ ^(٥) فهذا أشد ما يكون
 من التحذير من التفريط . وقال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ
 يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ^(٦) . وهذا أشد ما يكون في التبعيد . وقال عز وجل :
 ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ^(٧) وهذا أعظم ما يكون من الوعيد .
 وقال عز وجل ﴿ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مَرَدٌّ مِنْ
 سَبِيلِ ﴾ ^(٨) ، وهذا أشد ما يكون من التحسير . وقال عز وجل : ﴿ كَذَلِكَ
 مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُونٌ اتَّوَاصُوا بِهِ بِل
 هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ ^(٩) وهذا أشد ما يكون في التقرير من أجل التماي في الأباطيل
 وقال عز وجل : ﴿ يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾ ^(١٠)
 وهذا أشد ما يكون من الإذلال . وقال عز وجل ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ

-
- | | |
|----------------------|---------------------|
| (١) [الزخرف ٥٣/٥] | (٢) [الزخرف ٤٣/٣٩] |
| (٣) [الأنعام ٦١/٢٨] | (٤) [الزخرف ٤٣/٦٣] |
| (٥) [الزمر ٣٩/٥٦] | (٦) [فصلت ٤١/٤٠] |
| (٧) [فصلت ٤١/٤٠] | (٨) [الشورى ٤٢/٤٤] |
| (٩) [الذاريات ٥١/٥٣] | (١٠) [الرحمن ٥٥/٤١] |

بها المُجْرِمُونَ»^(١) وهذا أشد ما يكون من التقريع . وقال تعالى : ﴿ وما الحياةُ الدُّنيا إِلَّا متاعُ الغُرُورِ ﴾^(٢) وهذا أشد ما يكون من التحذير . وقال عز وجل : ﴿ فيها ما تشتهيه الأنفُس وتَلذُّ الأعْيُنُ وأنتم فيها خالدون ﴾^(٣) وهذا أشد ما يكون من الترغيب . وقال عز وجل : ﴿ ما اتَّخَذَ اللهُ من وَلَدٍ وما كَانَ مَعَهُ من إلهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إلهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾^(٤) وقال تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾ وهذا أبلغ ما يكون من الحجاج . وهو الأصل الذى عليه الاعتماد فى صحة التوحيد . لأنه لو كان إله آخر لبطل الخلق بالتمانع بوجودهما دون أفعالهما .

باب البيان عن الوجوه التى ذكرنا فى أول الكتاب

وهى : ترك المعارضة مع توفر الدواعى وشدة الحاجة ، والتحدى للكافة .
والصرفة ، والبلاغة . والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية ، ونقض العادة ، وقياسه بكل معجزة .

أما توفر الدواعى فيوجب الفعل مع الإمكان لامحالة ، فى واحد كان أو جماعة . والدليل على ذلك أن إنساناً لو توفرت دواعيه إلى شرب ماء بحضرته من جهة عطشه واستحسانه لشربه . وكل داع يدعو إلى مثله . وهو مع ذلك ممكن له فلا يجوز ألا تقع شربه منه حتى يموت عطشاً لتوفر الدواعى على ما بينا ، فإن لم يشربه مع توفر الدواعى له دل ذلك على عجزه عنه . فكذلك توفر الدواعى إلى المعارضة على القرآن لما لم تقع المعارضة دل ذلك على العجز عنها .

(١) [الرحمن ٥٥ / ٤٣] .

(٢) [آل عمران ٣ / ١٨٥] .

(٣) [الزخرف ٤٣ / ٨١] .

(٤) [المؤمنون ٣ / ٩١] .

وأما التحدى للكافة فهو أظهر في أنهم لا يجوز أن يتركوا المعارضة مع توفر الدواعي إلا للعجز عنها .

وأما الصَّرفة فهي صرف الهمم عن المعارضة . وعلى ذلك كان يعتمد بعض أهل العلم في أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة ؛ وذلك خارج عن العادة كخروج سائر المعجزات التي دلت على النبوة ، وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التي يظهر منها للعقول .

وأما الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية فإنه لما كان لا يجوز أن تقع على الاتفاق دل على أنها من عند علام الغيوب ، فمن ذلك قوله عز وجل : ﴿ وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ فكان الأمر كما وعد من الظفر بإحدى الطائفتين : العير التي كان فيها أبو سفيان ، أو الجيش الذين خرجوا يحمونها من قريش ، فأفترسهم الله عز وجل بقريش يوم بدر على ما تقدم به الوعد . ومنه قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ غَلَبَتْ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ (١) . ومنه : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (٢) ومنه : ﴿ فَتَحَنَّنَا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ ﴾ (٣) . ومنه : ﴿ فَاتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ (٤) . ومنه : ﴿ سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤَلِّقُونَ الدَّبْرَ ﴾ (٥) . ومنه : ﴿ لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْرُّوْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ

(٢) [الصف ٦١ / ٩] .

(٤) [البقرة ٢ / ٢٣] .

(١) [الروم ١ / ٣٠] .

(٣) [البقرة ٢ / ٩٤] .

(٥) [القصص ٥٤ / ٤٥] .

المُسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ مُخَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ﴿١١﴾
ومنه : ﴿ وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ
النَّاسِ عَنْكُمْ ﴾ (٢) ثم قال : ﴿ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ﴾ (٣).

وأما نقض العادة فإن العادة كانت جارية بضروب من أنواع الكلام
معروفة : منها الشعر ومنها السجع ومنها الخطب ومنها الرسائل ، ومنها المنثور
الذى يدور بين الناس فى الحديث ، فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن
العادة لها منزلة فى الحسن تفوق به كل طريقة . ولولا أن الوزن يحسن
الشعر لنقصت منزلته فى الحسن نقصاناً عظيماً . ولو عمل عامل من الكتان
باليدين من غير آلة ولا حَفٍّ (٤) ما يفوق الدَّبِيقِيَّ (٥) فى اللين والحسن حتى
لا يشك من رآه أنه أرفع الثياب الدَّبِيقِيَّةَ التى بلغت فى الحسن النهاية لكان
معجزاً . ولذلك من جاء بغير الوزن المعروف فى الطباع . الذى من شأنه أن
يحسن الكلام بما يفوق الموزون فهو معجز .

وأما قياسه بكل معجزة فإنه يظهر إعجازه من هذه الجهة . إذ كان
سبيلُ فلقِ البحر وقلبِ العصاحية وما جرى هذا المجرى فى ذلك سبيلاً واحداً
فى الإعجاز ، إذا خرج عن العادة وقعد الخلق فيه عن المعارضة . فإن قال
قائل : فلعل السُّورَ القِصَارَ ممكن للناس . قيل له : لا يجوز ذلك ؛ من قبل
أن التحدى قد وقع بها فظهر العجز عنها فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَاتُوا بِسُورَةٍ
مِنْ مِثْلِهِ ﴾ فلم يخص بذلك الطوال دون القصار . فإن قال قائل فإنه يمكن
فى القصار أن تغير الفواصل فيجعل بدل كل كلمة ما يقوم مقامها ، فهل

(١) [الفتح ٤٨ / ٢٧] .

(٢) [الفتح ٤٨ / ٢٠] .

(٤) الحف : المنسج .

(٣) [الفتح ٤٨ / ٢١] .

(٥) نوع من الثياب الرقيقة ينسب إلى بليدة مصرية اسمها دبيق كانت بين الغرما وتيسر .

يكون ذلك معارضة ؟ ! قيل له : لا ، من قبل أن المُفْحَم^(١) يمكنه في قوافي الشعر مثل ذلك ، وإن كان لا يمكنه أن ينشئ بيتاً واحداً ، ولا يفصل بطبعه بين مكسور وموزون ، فلو أن مفحماً رام أن يجعل بدل قوافي قصيدة رؤبة^(٢)

وقَاتِمِ الأَعْمَاقِ خَاوِي المَخْرَقِ

مَشْتَبِه الأَعْلَامِ لَسَاعِ الخَفَقِ

يَكِلُ وفْدُ الرِّيحِ من حيثُ انْخَرَقِ

فجعل بدل المخرق المُمْتَزَقِ ، وبدل الخفق الشَّقَقِ ، وبدل انخرق انطلق لأنه لا يمكنه ذلك ولم يجب به قول الشعر ولا معارضة رؤبة في هذه القصيدة عند أحد له أدنى معرفة . فكذلك سبيل من غيّر الفواصل وزعم أنه قد عارض . وهذا واضح بَيِّن لا يخفى على متأمل والحمد لله .

فإن قال : فما يسكر أن يكونوا عدلوا عن معارضة الطوال للعجز وعدلوا عن معارضة القصار لخفاء المساواة في الحكم ! . قيل له : لا يجوز ذلك ، لأن الحجة لهم به قائمة لو كان الأمر على تلك الصفة ، إذ كانت المعارضة فيما جرت به العادة على ذلك وقعت من عصبية قوم لأحد الفريقين ، وعصبية فريق للآخر على نحو نقائض جرير والفرزدق ؟ وقبلهما عمرو بن كلثوم والحرث بن حنظلة . فلو كان مما يجوز أن يقع فيه الاختلاف بين الجيدى الطباع لخفاء الأمر فيه لم يتركوا المعارضة له والاحتجاج به .

(١) المفحّم ككرم النبي ومن لا يقدر يقول شعراً .

(٢) هذه الأبيات من قصيدة مرجزة مشهورة لرؤبة بن العجاج وهي ترد في كتب النحوشاهد على أن تنوين الترخم الذي قد يلحق الروي المقيد ويسميه بعضهم الغالي . [راجع خزائن الأدب ص ٨١-٩٤ ط القاهرة ١٣٤٧هـ] .

فإن قال قائل : فلم اعتمدتم على الاحتجاج بعجز العرب دون الموالدين ، وهو عندكم معجز للجميع ، مع أنه يوجد للمولدين من الكلام البليغ شيء كثير ؟ قيل : لأن العرب كانت تقيم الأوزان والإعراب بالطباع ، وليس في المولدين من يقيم الإعراب بالطباع كما يقيم الأوزان والعرب على البلاغة أقدر لما بيئنا من فطنتهم لما لا يفطن له المولدون من إقامة الإعراب بالطباع ، فإذا عجزوا عن ذلك فالمولدون عنه أعجز * .